ترجمة الإمام أبي الوليد الباجي (ت ٤٧٤ هـ) الأصولية والفقهية وجهوده الإصلاحية بين ملوك الطوائف - دراسة تحليلية

د. أيوب بن نور الدين بلبل*

سلم البحث في ١٤٤٦/٤/٢هـ بسم الله الرحمن الرحيم اعتمد للنشر في ١٤٤٦/٥/٣هـ

ملخص البحث:

يتطرّق هذا البحث إلى بيان سيرة الإمام أبي الوليد الباجي (ت ٤٧٤ هـ) الأصوليّة والفقهيّة من خلال ذكر مراحل تلقّيه للفقه المالكيّ والخلاف العالي على كبار علماء الوقت في زمانه علاوة على تحصيله أصول الفقه والجدل على كبار النّظّار في المشرق أمثال الإمام أبي إسحاق الشّيرازيّ، والإمام أبي عليّ الطّبريّ، والفقيه أبي جعفر السّمنانيّ، والصّيمريّ رئيس الحنفيّة، والدّامغانيّ، وغيرهم كثير، وكذا ذكر أهمّ إسهاماته وإنتاجاته العلميّة في هذين الفنّين المطبوع منها، والمخطوط منها، والمفقود، ثمّ ذكر ثناء وشهادات العلماء في عصره وبعده سواء من علماء المالكيّة أم من المذاهب الأخرى، وإجماعهم على اختلاف مشاربهم وتخصّصاتهم بفضله وعلوّ قدره في العلم الشّرعيّ، وأخيرا بيان جهوده الإصلاحيّة بين ملوك الطّوائف، وذكر لطائف من إسهاماته في السّياسة الشّرعيّة، وذلك بغرض بيان أنّ الفقيه، والعالم، والمفتي لا بدّ له من مخالطة النّاس، ومشاركتهم همومهم، والبحث عن حلول لمشاكلهم راعون كانوا أم رعيّة وفق الشّروط الشّرعيّة والضّوابط المرعيّة، وأن يكون له نصيبٌ في الإصلاح الاجتماعيّ والسّياسيّ، وهو ما يعبّر عنه أهل الشّأن بفقه الواقع، والفقه التّنزيليّ لهذه العلوم والمعارف الّتي حصّلها طيلة مسيرته العلميّة الشّائقة.

الكلمات المفتاحيّة: أبو الوليد الباجي، ملوك الطوائف، الفقه المالكي، أصول الفقه.

Abstract

Biography of Imam Abu Al-Walid Al-Baji (d. ٤٧٤ AH) fundamentalism and jurisprudence and his reform efforts among the Taïfas -Analytical study By: Ayoub Ibn Nour Eddine Boulboul

This research deals with the biography of Imam Abu al-Walid al-Baji (d. ٤٧٤ AH) fundamentalism and jurisprudence by mentioning the stages of receiving Maliki jurisprudence and the high dispute over the senior scholars of the time in his time, in addition to his collection of the principles of jurisprudence and controversy on the senior peers in the East such as Imam Abu Ishaq Shirazi, Imam Abu Ali al-Tabari, jurist Abu Jaafar al-Samnani,

* كاتب ومدقّق لغويّ مستقّل، وباحث سنة ثالثة دكتوراه، تخصّص: الفقه وأصوله بجامعة محمّد الخامس بالرّباط، كليّة الآداب والعلوم الإنسانية، المغرب.

al-Saymari head of the Hanafi, Damghani, and many others, as well as mentioning his most important contributions and scientific productions in these two arts, printed ones, manuscript ones, and the lost, and then He mentioned the praise and testimonies of the scholars of his time and after him, whether from the Maliki scholars or from other sects, and their consensus on their different backgrounds and specializations thanks to him and his high ability in Islamic science, and finally the statement of his reform efforts among the Taïfas, He mentioned his contributions to the Islamic legal politics, with the aim of showing that the jurist, the scholar, and the mufti must socialize with people, share their concerns, and search for solutions to their problems.

Keywords:
Abu Alwaleed Albaji - the Taifas - Maliki jurisprudence - Fundamentals of jurisprudence

المقدمة:

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الّذين اصطفى، أمّا بعد: فإنّ هذه المقالة تروم نفض الغبار عن سيرة من سير أهمّ أعلام وفقهاء المالكيّة في بلاد الأندلس خلال القرن الخامس الهجريّ، ألا وهو الإمام أبو الوليد الباجي (ت ٤٧٤ هـ) من حيث التّرجمةُ الفقهيّة والأصوليّة ابتعادًا عن التّكرار، وطلبا للجدّة والإضافة العلميّة والتّاريخيّة في هذا الباب علاوة على بيان جهوده الإصلاحيّة بين ملوك الطّوائف، حيث تميّزت فترته بالحجاج والدّفاع عن المذهب المالكيّ أصولا وفروعًا في وجه المذاهب المعارضة له، والمهدّدة لبقائه آنذاك في ذلكم القطر العريق إذ تزعّم هذا التّهديدَ إمام الظّاهريّة في وقته؛ ابن حزم القرطبيّ (ت ٤٥٦ هـ)، وكان له ببلاد الأندلس الصّيت العالي واليد الطّولى في علم الكلام، والجدل، والمناظرة، علاوة لما كان لكلامه من طلاوة سحرت قلوب وألباب العباد، واطّلاعه على فنون قصرت عنها عقول الفقهاء بالأندلس؛ وعلى رأسها علمي الجدل والمناظرة، رغم ملاحظتهم تخليطه في مسائل شتّى، إذ غلبت عليهم الرّواية على الدّراية، فخلا له الجوّ، وكاد أن يقضي على المذهب المالكيّ في تلكم البلاد لولا توفيق الله تعالى وتسخيره عزّ وجلّ لأبي الوليد؛ والّذي كان لديه من العلوم والمعارف العقليّة والنّقليّة؛ الّتي حصّلها خلال رحلته بالمشرق ما يصدّ به زحف ابن حزم ومذهبه، فجرت بينهما مجالس ومناظرات كانت سببا في سقوط ابن حزم – كما سيمضي معنا في ترجمة أبي الوليد – وخروجه عن ميّورقة؛ وانحدار المذهبّ الظّاهريّ بالأندلس، وسطوع المذهب المالكيّ بها من جديد.

وفي هذا الصّدد تُعنى هذه الدّراسة بإبراز هذه الملامح الاجتهاديّة والإصلاحيّة خلال سيرة هذا الإمام الهمام، وبيان جهوده في خدمة المذهب المالكيّ

أصولًا وفروعا.

ومن بين الدّراسات السّابقة التي تناولت ترجمة الإمام أبي الوليد الباجي وسيرته نجد:

١- **جهود فقهاء المالكيّة في الإصلاح بين أمراء الطّوائف "الإمام الباجي نموذجا"**، للباحثين بوسيف سنوسي ويوسي الهوّاري، مجلّة المقدّمة للدّراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلّد (٦)، العدد (٢)، عام ٢٠٢١.

بعد قراءتي لهذه الدّراسة كاملة ظهرت لي بعض الملاحظات بدءا بالنّاحية اللغوية إذ هنالك بعض الأخطاء النّحويّة المعيبة نحو قولهم في (ص: ٦٥٢: فاختلف الأندلسيّين!!! فيما بينهم...)، والصّواب: فاختلف الأندلسيّون فيما بينهم، لأنّ الأندلسيّين في هذا الموقع الإعرابيّ فاعل يُرفع بالواو النّائبة عن الضّمة لأنّه جمعُ مذكّر سالم، ونفسه تكرّر في (ص: ٦٥٢: لم يجد الأمويين !!!...)، والصّواب: لم يجد الأمويّون لنفس العلّة آنفا، وكذا في (ص: ٦٥٣: فأشعلوا من أجل تحقيق هذه المكاسب السّياسيّة حروب...)، والصّواب حروبا لأنّه مفعول به منصوب بالفتحة، وهلمّ جرّا من الأخطاء النّحوية المنتشرة في ثنايا هذا المقال.

ومن النّاحيّة الموضوعيّة نشكر للباحثين توسّعهما الجيّد في بيان جهود الإمام أبي الوليد الإصلاحيّة بين ملوك الطّوائف لكنّ بحثي هذا يمتاز عن مقالهما ببيان مصنّفات هذا الإمام الهُمام الأصوليّة والفقهيّة، والاقتصار في ترجمته على ما يخدم مجال التّخصّص؛ وهو الفقه وأصوله.

٢- **رجال الفكر والإصلاح في الغرب الإسلاميّ "الإمام أبو الوليد الباجي نموذجا"** لرشيد ناصري، شبكة الألوكة.

اجتهد الباحث في بيان جهود الإمام أبي الوليد الباجي الإصلاحية في السّياسة الشّرعية إجمالا مع ذكره لنزر يسير من مصنّفاته الفقهية والأصوليّة إذ يمرّ عليها مرور الكرام، والنّاظر فيما سطّرتُه يتجلّى له اهتمامي الكبير بإسهاماته العلميّة على جهة التّفصيل مع بيان منهجه في كلّ مصنّف ممّا ذكرته، علاوة على ذكر الجهود الإصلاحية بين الرّاعي والرّعيّة، إلّا أنّ ما يُحسب لهذا الباحث المقتدر تناوله لمجالات الإصلاح على اختلاف مشاربها حيث تناول الإصلاح العَقَديّ، والإصلاح السّياسيّ، والإصلاح القضائيّ، والإصلاح العلميّ، إلّا أنّه لم يفصّل في الجهود الإصلاحيّة السّياسيّة بين ملوك الطّوائف لاستنزاف بقيّة المجالات صفحات البحث، وقد ذكرت تفصيل ذلك في بحثي هذا، والله الموفّق بمنّه وكرمه.

ومن دوافع اختياري لهذا الموضوع ما يلي:

١. شغفي بمجال الفقه وأصوله عموما، وبالفقه المالكيّ وأصوله على جهة الخصوص.

٢. الاطّلاع على ما سطّرته أنامل السّادة المالكية في التّراث الأصوليّ والفقهيّ في القرون المتقدّمة، وكشف مناهجهم، والاحتكاك بخبراتهم في هذا الميدان الخصب.

٣. اطّلاعي على جميع كتب الإمام الباجي المطبوعة في مجال الفقه وأصوله بفضل الله وكرمه، ممّا حذا بي إلى مزيد فضول وتعمّق لاكتشاف خبايا وأسرار هذا العَلَم النِّحرير.

٤. الاهتمام بعلوم وأعلام الغرب الإسلاميّ عامّة باعتبار انتمائي لهذا القطر العريق إجرائيّا، وإلّا فالتّعلّق الحقّ والواجب كامن بهموم وعلوم الأمّة الإسلاميّة جمعاء، وإنّما هي جهود فرديّة ليخدم كلّ باحث من موقعه، وحسبَ جُهده وطاقته هذه العلوم الإسلاميّة العريقة.

٥. بيان الجهود الإصلاحيّة لعلماء المالكيّة والغرب الإسلاميّ في السّياسة الشّرعيّة وإصلاح الرّاعي والرّعيّة، وأنّ العلماء على اختلاف الأعصار والأمصار لا يزالون مهتمّين بفقه واقعهم وهموم أهلهم وأمّتهم، وهم مشاركون قولا وفعلا في الحياة الاجتماعيّة والسّياسيّة في أقطارهم وبلدانهم، وواعون تمام الوعي بمشاكل عصرهم وطرق حلّها نظريّا وتطبيقيّا، وفي هذا ردّ واضح وبيان صادح لمن يشكّك في دراية فقهاء الزّمان بالواقع، ويحشرهم في الزّوايا والخبايا، ويشيع القالة بأنّهم جهلاء بواقعهم وملمّات أمّتهم، وما ذلك إلّا سبيل للطّعن في علومهم، وتزهيد النّاس في الأخذ عنهم، والاستفادة من خبراتهم وتجاربهم في الحياة، لتخلو السّاحة للجّهال، والغوغاء، والرّويبضة، وأهل الأهواء، والزّنادقة، وكلّ عدوّ للملّة والدّين بالعيث فسادًا في الأرض وفي العباد، وهذا ما نروم دحضه وطمس آثاره في هذه الورقات.

ومنهجي فيه أنّي تتبّعت سيرة الإمام الباجي في مختلف المراجع التّاريخيّة وكتب الطّبقات الّتي ترجمته على اختلاف أزمنتها ومشارب أهلها، وحاولت تتبّع وإبراز ملامح شخصيّته الفقهيّة والأصوليّة، وشيوخه في ذلك، وأبرز إسهاماته في هذين الفنّين العظيمين نظرا لتخصّصي الأكاديميّ الّذي عرّجت عليه آنفا، ثمّ ثنّيت ذلك ببيان جهوده الإصلاحيّة وإسهاماته في السّياسة الشّرعيّة في مرحلة ملوك الطّوائف، وهي آخر محطّة من محطّات هذه المقالة معلّقا بين الفينة والأخرى بما جادت به القريحة، وسمحت به اللّحظة والعبرة، واقتضاه السّياق والمقام، والله

الموفّق. **وقد قسّمته** إلى أربع مباحث وفق الآتي:

١. ترجمة الإمام الباجي (الأصوليّة والفقهيّة).

٢. التّعريف بأهمّ مصنّفات الإمام أبي الوليد الباجي الأصوليّة والفقهيّة.

٣. منزلة أبي الوليد الباجي العلميّة بين علماء عصره، ولدى علماء المالكيّة.

٤. جهوده الإصلاحيّة بين ملوك الطّوائف.

١-ترجمة الباجي: (الأصوليّة والفقهيّة)

هو سليمان بنُ خلف بنِ سعد بن أيّوب بن وارث، القاضي أبو الوليد الباجي، الفقيه، المتكلّم، المحدّث، المفسّر، الأديب، الشّاعر. أصله من مدينة بطليوس، وانتقل آباؤه إلى باجة الأندلس- وهي بلدة قرب إشبيليّة-، ثمّ قطنواْ قرطبة، واستقرّ أبو الوليد شرق الأندلس.

وُلد يوم الثّلاثاء في النّصف من ذي القَعدة سنة ثلاث وأربعمائة للهجرة (٣٠٤ هـ) بمدينة بطليوس، ورحل سنة ستّ وعشرين وأربعمائة للهجرة (٤٢٦ هـ) إلى المشرق، ومكث هنالك نحو ثلاثة عشر عاما، فأقام في الحجاز مجاورا مكّة ثلاثة أعوام؛ لازم خلالها الحافظ أبا ذرّ الهرويّ المحدّث (ت ٤٣٤ هـ)، وخدمه، وسمع منه الحديث، وأخذ عنه الفقه والكلام، وكان يسكن معه بسراة بني سيابة، لأنّ أبا ذرّ تزوّج من العرب هنالك، فسكن بها، وكان أبو الوليد يقضي حوائجه، وقد حجّ أربع حجج، ثمّ رحل إلى بغداد فأقام بها ثلاث سنوات يدرس الفقه على يدي كبار الفقهاء آنذاك أمثال أبي الطّيّب طاهر بن عبد الله الطّبريّ (ت ٤٥٠ هـ)؛ رئيس الشّافعيّة، وأبي إسحاق الشّيرازيّ الشّافعيّ، وأبي عبد الله الدّامغانيّ (ت ٤٧٨ هـ) ممّن انتهت إليه رئاسة الفقه الحنفيّ في زمانه، وأبي الفضل بن عمروس إمام المالكيّة في وقته (ت ٤٥٢ هـ)، والصّيمريّ رئيس الحنفيّة (ت ٤٣٦ هـ)، وتلقّى عن الخطيب البغداديّ (ت ٤٦٣ هـ) الرّواية، وأخذ الخطيب كذلك عنه، ودخل الموصل فأقام بها عاما يطلب على يد السّمنانيّ (ت ٤٤٤ هـ) الأصول والفقه[١]، ثمّ عاد إلى بلده الأندلس وحالته المادّيّة ضيّقة، فكان يتولّى ضرب ورق الذّهب للغزل والإنزال، حيث كان يخرج إلى أصحابه لإقرائهم وفي يده أثر المطرقة، وكان يعقد الوثائق، وقد حاز الرّياسة في الأندلس، وشاع صيته، وذاع علمه، وعظم جاهه، فولي القضاء بمواضع من الأندلس تصغر عن قدره كأريولة وشبهها، وقيل إنّه ولي قضاء حلب أيضا، والله أعلم بالصّواب وحده.

ولم يكن بالأندلس -قطّ- أتقن منه للمذهب المالكيّ، حيث أتقن الفقه على

طريقة النّظّار من البغداديين والحذّاق من القرويّين، وقد ندبه أمير بطليوس المتوكّل على الله عمر بن محمّد بن الأفطس (ت ٤٨٧ هـ) ليطوف بحواضر الأندلس، ويتّصل بالرّؤساء، ويدعوهم إلى لمّ الشّعث، وتوحيد الكلمة، ومدافعة العدوّ، فقام بالمهمّة، واتّصل بسائر الرّؤساء، ولم يدّخر وسعا في نصحهم ووعظهم.

ومن أبرز من سمع منه، وأخذ عنه، وتفقّه على يديه:

- أبو عمر ابن عبد البرّ (ت ٤٦٣ هـ).
- الخطيب البغداديّ.
- أبو بكر الفهريّ الطّرطوشيّ (ت ٥٢٠ هـ).
- أبو عليّ بن سهل السّبتيّ.
- القاضي ابن شبرين.
- الحافظ أبو عليّ الجيّاني (ت ٤٩٨ هـ)، وغيرهم كثير...

وذُكر أنّه اجتمع مع ابن حزم يوما، ودارت بينهما مناظرة، فلمّا انقضت قال له الفقيه أبو الوليد: "تعذرني فإنّ أكثر مطالعتي كانت على سرج الحرّاس"؛ فقال ابن حزم: "تعذرني أيضا فإنّ أكثر مطالعتي كانت على منائر الذّهب والفضّة"؛ أراد أنّ الغنى أمنع لطلب العلم من الفقر.

وممّا حُكي أيضا أنّه جرت بينهما مجالس كانت سبب فضيحة ابن حزم وخروجه عن ميّورقة؛ وقد كان رأس أهلها، ثم لم يزل أمره في سفال فيما بعد، وكان ذلك سببا في إحراق كتبه؛ وقد ذكر أبو الوليد في كتاب "فِرَقُ الفقهاء" من مجالس تلك ما يكتفي به من يقف عليه[٢].

وقد امتُحن رحمه الله عندما ألّف كتاب: "تحقيق المذهب" زعم فيه أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد كتب، حيث أنكر عليه ابن الصّائغ وكفّره بإجازة الكتابة على النّبيّ الأميّ عليه أفضل الصّلاة وأزكى التّسليم، وأنّ في دعواه هذه تكذيبا للقرآن الكريم، وقبّحوه هو وجماعته عند العامّة، حتّى تبرّأ منه غُلاتهم، ومن قول أحدهم؛ وهو عبد الله بن هند الشّاعر:

برئت ممّن شرى الدّنيا بآخرة *** وقال أنّ رسول الله قد كتبا

ولم يُنكر عليه أهل الرّسوخ والتّحقيق في العلم شيئا من قوله، وكتب المسألة إلى شيوخ صقلّية وغيرها، فردّوا الإنكار عليه، وسوّغوا تأويله، وأثنوا عليه، ومنهم ابن الخرّاز[٣].

وقد تُوفّي رحمه الله عن مال وافر[٤] بالمريّة ليلة الخميس بين العشاءين،

وهي ليلة تسع عشرة خالية من رجب، ودُفن يوم الخميس بعد صلاة العصر؛ سنة أربع وسبعين وأربعمائة (٤٧٤ هـ) بالرّباط على ضفّة البحر، وصلّى عليه ابنه أبو القاسم (ت ٤٩٣ ه)[٥].

٢-التّعريف بأهمّ مصنّفات الإمام أبي الوليد الباجي الأصوليّة والفقهيّة

سنعرض في هذا المبحث أهمّ كتب الإمام أبي الوليد الباجي الأصوليّة والفقهيّة المطبوع منها، والمخطوط، والمفقود وَفْقَ التّصنيف الآتي:

أ- كتب الإمام الباجي الأصوليّة:

- **إحكام الفصول في أحكام الأصول**، تحقيق: عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلاميّ، الطّبعة الثّانية، سنة: ١٩٩٥م.

هذا هو أوسع كتاب له في أصول الفقه، حيث نهج فيه النّهج الجدليّ في الانتصار لأصول المذهب المالكيّ، وبناء الفروع الفقهيّة على أصولها من أدلة الشّرع المتّفق عليها، والمختلف فيها، مع مناقشة باقي المذاهب الأخرى، والتّعرض للخلافات المذهبيّة، واستعراض التّطبيقات العمليّة في بيان أوجه الاجتهاد، والاختيارات الفقهيّة، ثم الخلوص إلى ما يراه صوابا وراجحا من ذلك، وقد قسّمه إلى أربعة أبواب حسبما ورد في فهرس الكتاب بتحقيق الدّكتور عبد المجيد تركي بتصرّف يسير:

• تمهيد: عرض فيه أسباب تأليفه للكتاب، ثم الدّراسة المصطلحية لأهمّ الحدود الأصولية، ثم ذكر حروف المعاني التي يحتاج إليها النُّظّار.

• باب أقسام أدلّة الشّرع: (القرآن، ثم الحديث، ثم الإجماع، ثم القياس، ثم استصحاب الحال، ثم الاستحسان، ثم منع الذّرائع).

• باب في حكم الاجتهاد.

• باب فيما يقع فيه التّرجيح من الأخبار والمعاني.

- **الحدود في الأصول**، تحقيق: الدّكتور نزيه حمّاد، مؤسّسة الزّغبي، الطّبعة الأولى، سنة: ١٩٧٣ م.

هذا الكتاب صنّفه الباجي رحمه الله في التّعريف بأشهر المصطلحات والمعاني الأصوليّة الّتي يحتاجها المشتغل بهذا الفنّ، وقد رواه الحافظ أبو بكر محمد بن خير بن عمر الإشبيليّ (ت ٥٧٥ هـ) عن شيوخه بالسّند المتّصل إلى مؤلّفه الباجي كما ذكره المحقّق، وهو يستفيض أحيانا في شرح الحدّ، وأحيانا يختصر، وأحيانا يعترض على الحدود الّتي ينقلها، ويذكر توجيهه، وتعريفه

المختار.

وهذا الكتاب غير مفهرس إذ يشمل أربعة وسبعين حدّا، وهي كالآتي:

١ :الحد/٢: العلم الضّروري/٣: العلم النّظريّ/٤: الاعتقاد/٥: الجهل/٦: الشّك/٧: الظّن/٨: السّهو/٩: العقل/١٠: الفقه/١١: أصول الفقه/١٢: الدّليل/١٣: الدّال/١٤: المستدلّ/١٥: المستدلّ عليه/١٦: الاستدلال/١٧: البيان/١٨: الهداية/١٩: النّص/٢٠: الظّاهر/٢١: العموم/٢٢: الخصوص/٢٣: المجمل/٢٤: المفسّر/٢٥: المحكم/٢٦ المتشابه/٢٧: المطلق/٢٨: المقيّد/٢٩: التّأويل/٣٠: النّسخ/٣١: دليل الخطاب/٣٢ لحن الخطاب/٣٣: فحوى الخطاب/٣٤: الحصر/٣٥: معنى الخطاب/٣٦: الحقيقة/٣٧: المجاز/٣٨: الأمر/٣٩: الواجب/٤٠: المندوب إليه/٤١: المباح/٤٢: السّنة/٤٣: العبادة/٤٤: الحسن/٤٥: الظّلم/٤٦: الجائز/٤٧: الشّرط/٤٨: الخبر/٤٩: الصّدق/٥٠: التّواتر/٥١: المسند/٥٢: الموقوف/٥٣: الإجماع/٥٤: التّقليد/٥٥: الاجتهاد/٥٦: الرّأي/٥٧: الاستحسان/٥٨: القياس/٥٩: الأصل/٦٠: الفرع/٦١: الحكم/٦٢: العلّة/٦٣: العلّة المتعدّية/٦٤: العلّة الواقفة/٦٥: المعتلّ/٦٦: الطّرد/٦٧: العكس/٦٨: التّأثير/٦٩: النّقض/٧٠: الكسر/ ٧١: القلب/٧٢: المعارضة/٧٣: التّرجيح/٧٤: الانقطاع.

- **الإشارة في معرفة الأصول والوجازة في معنى الدّليل**، تحقيق: محمّد عليّ فركوس، المكتبة المكّية، دار البشائر الإسلاميّة.

هذا الكتاب على صغره جمع فيه الباجي أصول المذهب المالكيّ، وهو اختصار لكتابه الموسّع في أصول الفقه: "إحكام الفصول في أحكام الأصول"، ذهب فيه رحمه الله إلى تيسير المسائل الأصوليّة، وإيجازها، وهو مفيد للمبتدئ والمنتهي على حدّ سواء.

وقد قسّم رحمه الله كتابه إلى ستّة عشر بابًا:

١ باب: أقسام أدلّة الشّرع/٢ باب: العموم وأقسامه/٣ باب: أحكام الاستثناء/٤ باب: حكم المطلق والمقيّد وما يتّصل بالخاصّ والعامّ/٥ باب: بيان حكم المجمل/٦ باب: بيان الأسماء العرفيّة/٧ باب: أحكام أفعال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم/٨ باب: أحكام الأخبار/٩ باب: أحكام النّاسخ والمنسوخ/١٠ باب: الإجماع وأحكامه/١١ باب: الكلام في معقول الأصل/١٢ باب: أحكام القياس (معنى الخطاب) /١٣ باب: حكم استصحاب الحال/١٤ باب: أحكام التّرجيح/١٥ باب: ترجيحات المتون/١٦ باب: ترجيح المعاني.

- **النّاسخ والمنسوخ في الأصول**، ذكر الدّكتور محمد عليّ فركوس في تحقيقه لكتاب "الإشارة في معرفة الأصول والوجازة في معنى الدّليل" أنّ هذا الكتاب لم يكمله الباجي رحمه الله، ولم أقف عليه مطبوعا فيما أعلمه.

- **المنهاج في ترتيب الحجاج**، تحقيق: عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلاميّ.

هذا الكتاب هو في علم الجدل والخلاف، صنّفه الإمام الباجي انتصارا لأصول المذهب المالكيّ، واحتجاجا لها مقابل المذاهب الخلافيّة الأخرى، وذلك بعرض الآراء الخلافيّة في المذاهب الثلاثة الكبرى، ثمّ مقارنتها بما عند المالكيّة من أنظار، وهو موجّه لأهل بلده بالأندلس بالدّرجة الأولى، تدريبا لهم على هذا الفنّ النّادر لديهم آنذاك، لغلبة الرّواية، وطابع التّصنيف على صيغة الأحكام، والنّوازل، والوثائق، دون احتجاج للأقوال والمذاهب، وتمحيصها، والدّفاع عنها بالنّظر العقليّ الأصوليّ، وعلم الجدل.

وهو يضمّ مدخلًا، وثمانية أبواب حسب فهرسة المحقّق، وهي كالآتي:

١- مدخل/٢ باب: أقسام أدلّة الشّرع/٣ باب: أقسام السّؤال والجواب/٤ باب: بيان وجوه الاعتراض على الاستدلال بالكتاب/٥ باب: الاعتراض على الاستدلال بالسّنّة/٦ باب: بيان وجوه الاعتراض على الاستدلال بالإجماع/٧ باب: الكلام على معقول الأصل/٨ باب: الكلام على استصحاب الحال/٩ باب: الكلام على التّرجيحات.

ب- كتب الإمام الباجي الفقهيّة:

- **المنتقى شرح موطّأ مالك**، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان –، الطّبعة الأولى، سنة ١٩٩٩ م، سبعة أجزاء.

هذا الكتاب اسم على مسمّى، فقد انتقاه الباجي، وانتخبه من كتابه المستفيض في شرح الموطّأ، والمعنون ب "الاستيفاء"، كما ذكره في مقدّمة كتابه، رغبةً منه إلى إيجاب السّائل عن طلبه، لمّا نظر تعذّر أغلب النّاس عن فهم "الاستيفاء"، والإحاطة بمسائله، لأنّه قصد به خاصّة الخاصّة، ولما شمله من كثرة المسائل، وتشعّب المعاني، فرغب إلى اختصاره، بحذف أسانيده، وتهذيب مسائله، والإعراض عن إيراد حجج المخالفين والاستطراد فيها، ومنهجه فيه كالآتي:

- إيراد الحديث من الأصل.
- ذكر فروعه، وما يتعلّق به من مسائل، ووجوه، ودلائل، ونقولات عن الأئمّة في المذهب المالكيّ.

• الشّرح، والتّرجيح، والتّوجيه، والتّعليل، وبيان ما يراه صوابا من ذلك كلّه.

- **المعاني في شرح الموطأ**، مفقود.
- **الاستيفاء شرح الموطّأ**، مفقود.
- **الإيماء مختصر المنتقى**، مفقود.
- **المقتبس من علم مالك بن أنس**، مفقود.
- **شرح المدوّنة**، مفقود.
- **المهذّب في اختصار المدوّنة**، مفقود.
- **مختصر المختصر في مسائل المدوّنة**، مفقود.
- **مسائل الخلاف**، مفقود.
- **فرق الفقهاء**، مفقود.
- **السّراج في عمد الحجاج**، مفقود.
- **فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكّام**، تحقيق: الدّكتور محمد أبو الأجفان،مكتبة التّوبة ودار ابن حزم، الطّبعة الأولى سنة٢٠٠٢م.

هذا الكتاب صنّفه الباجي رحمه الله في علم القضاء المنظّم لفقه المعاملات بين النّاس، وما يلحقه من أحكام النّوازل، والدّعاوى الواردة على القضاة. وقد جمع فيه رحمه الله تعالى ما جرى به العمل في الفتيا والقضاء على مذهب المالكيّة في زمانه، وهو يرجّح أحيانا، ويعلّل، ويختار حسب ما تدعو إليه الحاجة عنده، وهو قسمان حسب تصنيف المحقّق:

القسم الأوّل: يشمل ما يتعلّق بالقضاء، والشّهادات، واليمين، وإجراءات التّداعي، وتحته فصول تابعة له.

القسم الثّاني: ما يتعلّق بالأحكام التي يرجع إليها القاضي، ويطبّقها بعد البحث في الدّعوى، ويسير عليها في حكمه، وتحته فصول من جنسه.

- **مسألة مسح الرأس**، مفقود.
- **مسألة غسل الرّجلين**، مفقود.
- **مسألة اختلاف الزّوجين في الصّداق**، مفقود.

٣-منزلة أبي الوليد الباجي العلميّة بين علماء عصره، ولدى علماء المالكيّة

النّاظر في تراجم الإمام الباجي يجد إجماعا على جلالة قدره ومكانته العلميّة المرموقة لا سيّما في الفقه وأصوله- موضوع بحثنا - سواء من العلماء داخل المذهب المالكيّ أو خارجه، حتّى من أشدّ أقرانه المخالفين له في جملة من المسائل؛

وهو ابن حزم فريد عصره، وأعجوبة زمانه، إذ يقول رحمه الله عن الباجي: "لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكيّ بعد عبد الوهّاب إلّا مثل أبي الوليد الباجي لكفاهم"[٦]، وذلك رغم ما وقع بينهم من مناظرات، وسجالات، ومناقشات كانت حاسمة في تراجع منزلة ابن حزم في الأندلس، والسّبب الرّئيس في محنته كما تقدّم في ترجمة الباجي الفقهيّة والأصوليّة، ممّا تتجلّى معه منزلة الباجي العلميّة حتّى عند أشدّ خصومه ومنافسيه.

قال عنه القاضي عيّاض (ت ٥٤٤ هـ): "وسألت عنه شيخنا قاضي قضاة الشّرق أبا عليّ الصّدفي الحافظ صاحبه، فقال لي: "هو أحد أئمّة المسلمين، لا يُسأل عن مثله، ما رأيت مثله!". وقال عنه أيضا: "وكان القاضي أبو عبد الله بن شبرين (ت ٥٠٣ هـ) يثني عليه كثيرا، وكذلك شيوخنا: أبو إسحاق بن جعفر الفقيه، وقاضي القضاة أبو محمد بن منصور، ويَرْبُونَ به جيّدا، ويفضّلونه، ويفضّلون كتبه"[٧].

وقال عنه الذّهبيّ (ت ٧٤٨ هـ): "أخبرني بعض أصحابنا، قال: سمعت أبا عليّ بن سكّرة الحافظ (ت ٥١٤ هـ) يقول وقد ذكر شيخه أبا الوليد هذا، فقال: "ما رأيت مثله، وما رأيت على سمته، وهيئته وتوقير مجلسه، وقال: "هو أحد أئمّة المسلمين"[٨]. وقال عن مؤلّفاته: "وصنّف المنتقى في الفقه، والمعاني في شرح الموطّأ عشرين مجلّدًا لم يُؤلّف مثله، وكان قد صنّف كتابًا كبيرًا جامعًا بلغ فيه الغاية، سمّاه كتاب الاستيفاء".

وعنها قال القاضي ابن فرحون المالكيّ (ت ٧٩٩ ه): "ولأبي الوليد تآليفُ مشهورة منها: كتاب "الاستيفاء، شرح الموطأ"؛ كتاب حفيل كثير العلم، لا يُدرِك ما فيه إلّا من بلغ درجة أبي الوليد في العلم"[٩]

وفي نفس السيّاق أخبر المقرّي التّلمسانيّ (ت ١٠٤١ هـ): "وكتاب "شرح الموطأ" وهو نسختان: نسخة سمّاها "الاستيفاء"، ثم انتقى منها فوائد سمّاها "المنتقى" في سبع مجلّدات، وهو أحسن كتاب أُلّف في مذهب مالك؛ لأنّه شرح فيه أحاديث الموطّأ، وفرّع عليها تفريعا حسنا"[١٠] وحدّث عنه كبار أعلام الوقت، وحفّاظ الزّمان آنذاك؛ وهما حافظا المشرق والمغرب أبو عمر بن عبد البرّ، وأبو بكر الخطيب البغداديّ، وقد كان أحدث سنّا منهما.[١١]

ونَقَلَ عن القاضي أبي عليّ الصّدفيّ قوله: "ما رأيت مثل أبي الوليد الباجي، وما رأيت أحدا على سمته، وهيئته، وتوقير مجلسه، ولمّا كنت ببغداد قدم ولده أبو

القاسم أحمد، فسرت معه إلى شيخنا قاضي القضاة الشّاميّ، فقلت له: أدام الله عزّك، هذا ابن شيخ الأندلس. فقال: لعلّه ابن الباجي؟ قلت: نعم، فأقبل عليه[١٢]"

وقال في حقّه القاضي أبو بكر بن العربيّ رحمه الله تعالى في سياق ذكره لمصائب نزلت بالعلماء عن طريق الفتوى: "عطفنا عنان القول على مصائب نزلت بالعلماء في طريق الفتوى، وقد كانت على مرتبتها في الصّدر الأوّل، ثمّ نزلت حتّى كثرت البدع، وذهب العلماء، وتستّرت المبتدعة بالشّريعة، فتعاطت منصب الفقهاء، وتعلّقت أطماع الجهّال بها، فنالوها بفساد الزّمان... ولولا أنّ طائفة نفرت إلى دار العلم، وجاءت بلباب منه، كالأصيليّ والباجي، فرشّت من ماء العلم على هذه القلوب الميّتة، وعطّرت أنفاس الأمّة الزّفرة، لكان الدّين قد ذهب...". [١٣]

وقال عنه القاضي محمّد بن عمر مخلوف المالكيّ (ت ١٣٦٠ هـ): "القاضي أبو الوليد الباجي سليمان بن خلف التّميميّ: الفقيه، الحافظ، النّظّار، العالم، المتفنّن، المؤلّف، المتقن، المتّفق على جلالته علمًا، وفضلًا، ودينا، وأكثر نسخ البخاري الصّحيحة بالمغرب إمّا رواية الباجي عن أبي ذرّ بسنده...."

وقال عن مؤلّفاته: "وشرح الموطّأ وهو نسختان: إحداهما الاستيفاء؛ كتاب مفيد كثير العلم، ثمّ انتقى منها فوائد سمّاها "المنتقى في سبع مجلّدات"، وهو أحسن كتاب أُلّف في مذهب مالك شاهد له بالتّبحّر في العلوم"[١٤].

وقال عنه الحافظ ابن كثير: "أحد الحفّاظ المكثرين في الفقه والحديث[١٥]".

وقال عنه ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ): "صاحب التّصانيف، إمام لولاه ما وجدت الألسن مقالا، ولا حلّت من العلم عقالا، ولا نفرت من الخواطر المعاني خفافا وثقالا، ثمّ أقبل على الفقه بكلّيّته، فسلم من كلّ ظنّة، ولم يكن على نفسه لغيرها منّة، وفضله أشهر من بشائر الصّباح، وأظهر من أمائر السّماح، على أنّ المجد فيه لا يبلغ المرام، والمحيد معرض للملام".[١٦]

وقال عنه الصّفديّ (ت ٧٦٤ هـ): "وبرع في الحديث، وبرّز على أقرانه، وتقدّم في علم الكلام والنّظم".

وقال عن كتبه: "وصنّف "المنتقى في الفقه"، و"المعاني في شرح الموطأ" عشرين مجلّدا لم يؤلّف مثله، وكان قد صنّف كتابا كبيرا جميعا بلغ فيه الغاية سمّاه "كتاب الاستيفاء[١٧]".

وبهذه الشّهادات العظيمة والتّزكيّات الفخمة من علماء وفقهاء كبار أجلّاء للإمام الباجي ومؤلّفاته تظهر لنا قيمته العلميّة ناصعة صريحة لا تحتاج إلى تفكير

أو تأويل، حيث أجمع علماء وقته ومن بعدهم على أهليّته العلميّة، وملكته الأصوليّة والفقهيّة.

٤-جهوده الإصلاحيّة بين ملوك الطّوائف

نشأ عصر ملوك الطّوائف على إثر انهيار الخلافة الأندلسيّة الكبرى بسقوط الدّولة العامريّة عام (٣٩٩ هـ) حيث تفكّكت الدّولة الأندلسيّة وانقسمت إلى دويلات أو ممالك كلّ واحدة منها ترى الاستقلال والسيّادة المطلقة على منطقتها، وأنّها لا صلة لها بالممالك الأخرى، ولا تربطها بها أيّة رابطة، سوى المنافسات غير الشّريفة والحروب الأهليّة بغرض التّوسّع والغزو، وأحيانا تمّ ذلك داخل المملكة الواحدة والإمارة نفسها، وعلاوة على هذه المعطيات فقد عانى الشّعب الأندلسيّ في ظلّ حكم ملوك الطّوائف الأمرّين؛ فإلى جانب القلاقل الدّاخليّة والتشقّقات والتّصدّعات قاست الشّعوب من جشع الحكّام الّذين صيّروا من إماراتهم ضياعا خاصّة، وجعلواْ رعاياهم عبيدا؛ ينهبون ممتلكاتهم وثمار كدّهم إرضاءً لنزواتهم في إنشاء القصور الباذخة، واقتناء الجواري الحسنة، والغرق في حياة البذخ والتّرف، فضلا عن دفع الإتاوات إلى ملوك الإسبّان، والارتماء في أحضانهم من أجل البقاء والمحافظة على الكراسي المنخورة المهزوزة، ممّا جعل هذا الشّعب محبطا بائسا فاقدا للأمل، فكانت شرارة التّمزّق والتّشتّت النّفسيّ والمادّيّ في المجتمع الأندلسيّ، وعلت أصوات الرّحيل عن الموطن، كما اتّسم ملوك الطّوائف بضَعْف العقيدة والاستهتار بأحكام الدّين، وبذلك استحقّ هذا العصر لقب ملوك الطّوائف.

والنّاظر في ذلك كلّه يتأمّل قول الحقّ جلّ جلاله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، [آل عمران: ١٠٣].

قال الإمام الطّبريّ في تأويله لهذه الآية الكريمة: "تمسّكواْ بدين الله الّذي أمركم به، وعهده الّذي عهده إليكم في كتابه إليكم؛ من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتّسليم لأمر الله، ولا تتفرّقواْ عن دين الله وعهده الّذي عهد إليكم في كتابه، من الائتلاف والاجتماع على طاعته وطاعة رسوله صلّى الله عليه وسلّم، والانتهاء إلى أمره، واذكرواْ نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم إذ كنتم تذابحون فيها؛ يأكل شديدكم ضعيفَكم، حتّى جاء الله بالإسلام، فآخى به بينكم وألّف به بينكم... فأصبحتم بتأليف الله بينكم بالإسلام وكلمة الحقّ، والتّعاون على نصرة أهل

الإيمان، والتّآزر على من خالفكم من أهل الكفر إخوانا متصادقين لا ضغائن بينكم ولا تحاسد، أمّا والله الّذي لا إله إلّا هو؛ إنّ الألفة لرحمة، وإنّ الفرقة لعذاب"[١٨].

فكما قرّر هذا الإمام الهمام أنّ في الاجتماع على كلمة الحقّ، ونبذ الأهواء والمصالح الشّخصيّة والأمور النّفسيّة الخيرَ والصّلاح كلّه، وفي الفرقة، والخلاف المذموم، واتّباع الأهواء، والحرص على المطامع والمكاسب الذّاتيّة ولو على حساب مصالح الجماعة الشّرورَ كلّها، وما طمع العدوّ في ملوك الطّوائف وإماراتهم إلّا من هذا الباب، وهذه سنّة ماضية فيمن ترك الاجتماع على كلمة الإسلام، وتحكيم كلام الله تعالى ورسوله عليه الصّلاة والسّلام في المنازعات، والرّجوع إلى أهل العلم والعدل في ذلك، وركن إلى هواه وركب عقله، وهذه الحقائق لا تحتاج إلى براهين بل هي بديهيّة دلّ عليها دليل الفطرة، والعقل، والشّرع، ففي الاجتماع على الحقّ قوّة، ورحمة، ومنعة، وفي الفُرقة ضَعف، ورخاوة، وعذاب، لكنّه العمى؛ عمى القلوب إذا تمكّن من المرء فتك به أيّما فتك، والله المستعان وعليه التُّكلان.

وفي خضمّ هذه الفتن، والقلاقل، والاضطرابات الّتي تعيشها الطّوائف، فلا بدّ لكلّ قاعدة من استثناء، ومن القواعد عدم اطّراد القواعد كما يقول أهل الشّأن إذ ظهر أحد المصلحين الّذين يريدون لمّ الشّمل، وتوحيد الكلمة، وإعادة الأمور إلى نصابها ما دام تجمع هذه الطّوائف وَحْدَة العقيدة، واللّغة، والثّقافة، فلا بدّ من السّعي لتحقيق هذا المأرب وإعادة الكنز المفقود، وهو المتوكّل على الله عمر بن محمّد بن الأفطس (ت ٤٨٧ هـ)؛ حاكم مدينة بطليوس؛ والّذي عُرف بسياسته الحكيمة وتشجيعه للحركة العلميّة والأدبيّة، وتقريبه العلماء، وتمتّعت مدينة بطليوس في عصره بالأمن والرخاء إذ انتدب قاضيه آنذاك إمامنا أبا الوليد الباجي رحمه الله ليجول ويطوف بحواضر الأندلس ويتّصل بملوكها ورؤسائها قصد دعوته إلى لمّ الشّعث وتوحيد الكلمة ومدافعة العدوّ الحقيقيّ وهو العدوّ النّصرانيّ المتمثّل في ممالك إسبانيا الشّماليّة؛ الّذي يتربّص بالطّوائف وملوكها ليل نهار لا يفتر عن ذلك؛ آخذا الأمر مسألة ثأر وشرف، وعلى رأسهم ملك قشتالة ألفونسو السّادس (ت ١١٠٩ م)، فلم يدّخر فقيهنا الجليل وسعا في نصحهم ووعظهم، وتحذيرهم من عواقب التّفرّق، داعيا إيّاهم إلى نجدة طليطلة، لكن جهود الباجي وغيرهم من المصلحين ذهبت سدى، وكانت كمن ينفخ في عظام ناخرة ويحرث في رماد لغلبة الأهواء والأطماع على ملوك الطّوائف إلّا من رحم الله تعالى، وطغيان المصالح الشّخصيّة، والرّغبة في الانفراد بالحكم والاستيلاء على باقي الممالك، فلم يتبقّ في

ساحة القتال ضدّ الملك ألفونسو وجيشه سوى الملك الشّهم المتوكّل الّذي دافع بما استطاع، ورام إنجاد أهل طليطلة بما اتّفق له من عتاد وعدّة، لكنّه لم يستطع مغالبة قوى النّصارى الجارفة المتفوّقة عليه عددًا وعُدّة، فرجع آسفًا بعد أن خاض معارك دامية ضدّ النّصارى.

وهذا نصّ رسالة المتوكّل عن طريق أبي الوليد الباجي إلى ملوك الطّوائف إذ يقول فيها: "وما أحضّكم على الجهاد بما في كتاب الله، فإنّكم له أتلى، ولا بما في حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فإنّكم إلى معرفته أهدى، وكتابي إليكم هذا يحمله الشّيخ الفقيه الواعظ، يفصّلها ويشرحها، ومشتمل على نكتة هو يبيّنها ويوضّحها، فإنّه لمّا توجّه نحوك احتسابًا، وتكلّف المشقّة إليك طالبًا ثوابًا، عولت على بيانه، ووثقت بفصاحة لسانه والسّلام"[١٩].

٥-خاتمة:

بعد توفيق الله تعالى وتيسيره لإتمام هذا البحث بالشّكل الظّاهر أمامكم، أرجو أن يكون قد استوعب أبرز مظاهر ومعالم سيرة الإمام الباجي الأصوليّة والفقهيّة، إذ ما زال المشوار طويلا لاستكشاف هذه الشّخصيّة الفريدة، والاطلاع على تراثها المخطوط فقهيّا وأصوليّا في قادم المناسبات بحول الله وقوّته، وقد خلصت فيه لأهمّ النّتائج الآتية:

- إنّ الإمام الباجي رحمه الله من كبار الأصوليّين والفقهاء المالكيّة، ودلائل ذلك كثيرة من أبرزها – بعد شهادات العلماء الّتي مرّت معنا في القسم الثّالث – كتابه في الأصول: "إحكام الفصول في أحكام الأصول"، وشرحه على الموطّأ "المنتقى" الّذي يعدّ عمدة في الفقه المالكيّ، ومن أفضل شروحات الموطّأ.
- لمعرفة قيمة الإمام الباجي الأصوليّة والفقهيّة لا بدّ من دراسة اختياراته واجتهاداته في ضوء الخلاف العالي والمصادر الأصوليّة والفقهيّة المعتبرة.
- إنّه يجمع في الحجاج والاستدلال بين الأصول النّقليّة والعقليّة، وبه تميّزت مدرسته عن باقي المدارس الفقهيّة.
- إنّ العالم الرّبانيّ لا يقتصر دوره على التّحصيل العلميّ وتدريسه لطلبة العلميّ بل يتجاوزه إلى الشّعور بقضايا الأمّة والبحث عن حلول لمشاكلها لا سيّما ما له صلة بالسّياسة الشّرعيّة وإصلاح أحوال الرّاعي والرّعيّة.
- أدعو الباحثين إلى دراسة تراجم واختيارات أعلام المالكيّة الّذين اعتنوا بالتّأصيل والتّقعيد الفقهيّ، وكانت لديهم اليد الطّولى في الفنّين أمثال أبي بكر الأبهريّ (ت

٣٧٥ هـ)، وأبي الحسن ابن القصّار (ت ٣٩٧ هـ)، والقاضي عبد الوهّاب المالكيّ (ت ٤٢٢ هـ)، والقاضي أبي بكر بن العربيّ (ت ٥٤٣ هـ)، وجمال الدّين ابن الحاجب (ت ٦٤٦ هـ)، وشهاب الدّين القرافيّ (ت ٦٨٤ هـ)، وغيرهم من مجتهدي المذهب المالكيّ؛ الّذين برزّوا في أصول مذهب الإمام مالك وفروعه قصد معرفة طرائقهم في الاستدلال من خلال اختياراتهم، ومسالكهم في التّقعيد الفقهيّ، وتخريج الفروع وبنائها على أصولها، وجمع النّظائر وهلمّ جرّا من مناهج النّظر والاستنباط علاوة على اهتمامهم بفقه الواقع ومشاركتهم قضايا الأمّة.

هوامش البحث:

[١] نستشفّ من ترجمة هذا الإمام الهمام أنّ من أراد بلوغ القمّة في العلم فلا مناص له من علوّ الهمّة وبذل الغالي والنّفيس في سبيل تحصيله، والتّضحيّة بالمال، والوقت، والأهل، والمُقام حتّى يعطيك بعضا من أسراره ومكنوناته على قاعدة "أنّ العلم إذا أعطيته كلّك أعطاك بعضه"، أمّا من أراد تحصيل العلم بالنّوم، والدّعة، ومطالعة الصّحف، والدّراسة حسب المزاج، والقراءة الانتقائية، والتّنقّل بين الكتب دون ختمها، والاكتفاء بالمقدّمات، والاستغناء عن المطوّلات بالملخّصات، وإغفال التّدرّج في العلم، ومطالعة المطويّات، والإعراض عن مجالس أهل العلم المعتبرين، ومخالطتهم، وثني الرّكب أمامهم، ومناقشتهم، ومذاكرة ما حصّل ومُدارسته، ومراجعة المحفوظ وإدمان النّظر فيه، وصرف فاضل الوقت في المقاهي، والملاهي، ومشاهدة المباريات، والطّعام والشّراب الكثير، والتّجوال، ومجالسة الخلّان البطّالين، ومفضوله في العلم فهيهات هيهات !!! وعلى غراره يقول الإمام بن فارس (ت ٣٩٥ هـ) رحمه الله:

إذا كان يؤذيك حرّ المصيف *** وكرب الخريف وبرد الشّتا
ويلهيك حسن جمال الرّبيع *** فأخذك للعلم قل لي متى؟!!!

[٢] هذا الكتاب مفقود كما سيأتي معنا في المبحث الثّاني عند بيان أهمّ مصنّفاته الفقهيّة والأصوليّة.

[٣] قلت: الّذي تطمئنّ النّفس إليه من جهة الدّلالة هو قول الجمهور بعدم كتابته صلّى الله عليه وسلّم، موافقةً لصريح الآية الكريمة: {وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ}، [سورة العنكبوت: ٤٨]، وسدّا لذريعة بثّ الشّبه في الدّين، وتجرّأ الزّنادقة على الطّعن في قدسيّة القرآن الكريم، والتّشكيك في أنّه كلام الله تعالى؛ الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن قواعد التّرجيح تقديم قطعيّ الدّلالة والثّبوت على قطعيّ الثّبوت ظنيّ الدّلالة عند التّعارض في ذهن العالم وصعوبة الجمع، وتقديم المتواتر اللفظيّ والمعنويّ على المتواتر اللّفظيّ دون المعنوي أو على خبر الآحاد، علاوة على أنّ الأحاديث الّتي فيها التّصريح بكتابته عليه الصّلاة والسّلام قد تكلّم فيها أهل الصّناعة بالضّعف، والانقطاع، وجهالة الرّوّاة، ومنها ما حُكم عليه بالوضع، وهذا مبسوط في موضعه، والله أعلى وأعلم.

[٤] وهذا من فضل الله تعالى عليه وعلى النّاس، فبعد الفقر المدقع واضطراره للاشتغال في الحراسة اللّيليّة رغم مكانته العلمية وعلوّ مقامه المعرفيّ آتاه الله من فضله لمّا آثر ما عنده، واشتغل بأشرف الأمور، وأخلص النّيّة –فيما نحسبه والله حسيبه– أتته الدّنيا وهي راغمة، فمن

اتّقى الله رأى عجبا، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، والقاعدة المقرّرة "أنّ من أراد الدّنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم"، شرط إخلاص النيّة فيه وابتغاء وجه الله بطلبه، والعمل به، ونشره، والصّبر على الأذى فيه، والله الموفّق لنا جميعا لتحقيق هذه المقامات وبلوغ هذه الغايات إنّه سميع مجيب.

[٥] ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عيّاض، ١١٧/٨ – ١٢٧، الصّلة لابن بشكوال، ٣١٧/٤ – ٣٢٠، معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت الحموي، ص: ١٣٨٧ – ١٣٨٩، ١٦٥١–١٦٥٢، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، ٤٠٨/٢ – ٤٠٩، سير أعلام النّبلاء للذّهبيّ، ص: ١٩٠٧ – ١٩٠٩، العبر في خبر من غبر للذّهبيّ، ٣٣٢/٢، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذّهبيّ، ٣٦٥/١٠ – ٣٦٩، فوات الوفيات لمحمّد بن شاكر، ٦٤/٢ – ٦٥، البداية والنّهاية لابن كثير، ٢٠٩/١٣، الدّيباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون المالكيّ، ٣٧٧/١ – ٣٨٥، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب لأحمد المقرّي التّلمسانيّ، ٦٧/٢ – ٦٩، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات لعبد الحيّ الكتّانيّ، ٢١٢/١، شجرة النور الزّكيّة في طبقات المالكيّة لمحمّد بن قاسم مخلوف، ١٧٨/١، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثّاني: دول الطّوائف منذ قيامها حتّى الفتح المرابطي لمحمّد عبد الله عنان، ٩١/٢، ١١١ – ١١٢، ٢٨٢ – ٢٨٣، ٤٣٣، تاريخ الفكر الأندلسيّ لآنخل جنثالث بالنثيا، ص: ٤٢٤ – ٤٢٧، الإعلام بوفيات الأعلام للذّهبيّ، ص: ٣١٣، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمريّ، ١٣٤/٦ – ١٣٨، مرآة الجنان وعبر اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزّمان لأبي محمّد اليمني المكّي، ٨٣/٣ – ٨٤، قلادة النّحر في وفيات أعيان الدّهر لأبي محمّد الطّيّب الشّافعيّ، ٤٦٧/٣ – ٤٦٨، ٤٩١، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين لخير الدّين الزّركلي، ٤٠/٢، الوافي بالوفيات لصلاح الدّين الصّفديّ، ٢٢٩/١٥ – ٢٣٠، شذرات الذّهب في أخبار من ذهب لابن عماد الدّمشقيّ، ٣١٥/٥ – ٣١٦، جمهرة تراجم الفقهاء المالكية لقاسم سعد، ٥٥٦/١ – ٥٥٩، رشف الفضال من تراجم أعلام الرّجال لمحمّد الأمين، ص: ٢٦ – ٢٧، الوفيات: معجم زمني للصّحابة، وأعلام المحدّثين، والفقهاء، والمؤلّفين من سنة ١١ – ٨٠٧ هـ لابن قنفذ القسنطيني، ص: ٢٥٥، تاريخ قضاة الأندلس المسمّى: كتاب المرقبة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفتيا لأبي الحسن المالقي الأندلسيّ، ص: ٩٥، بتصرّف واختصار.

[٦] ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عيّاض، ١١٧/٨ – ١٢٧، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب لأحمد المقرّي التّلمسانيّ، ٦٧/٢ – ٦٩، شجرة النّور الزّكيّة في طبقات المالكيّة لمحمّد بن قاسم مخلوف، ١٧٨/١، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمريّ، ١٣٤/٦ – ١٣٨، تاريخ الفكر الأندلسيّ لآنخل جنثالث بالنثيا، ص: ٤٢٤ – ٤٢٧، الدّيباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون المالكيّ، ٣٧٧/١ – ٣٨٥.

[٧] ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عيّاض، ١١٧/٨ – ١٢٧.

[٨] نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب لأحمد المقرّي التّلمسانيّ، ٦٧/٢ – ٦٩، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذّهبيّ، ٣٦٥/١٠ – ٣٦٩، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

لابن فضل الله العمريّ، ١٣٤/٦ – ١٣٨، مرآة الجنان وعبر اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزّمان لأبي عبد الله اليافعيّ، ٨٣/٣ – ٨٤.

[٩] الدّيباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون المالكيّ، ٣٧٧/١ – ٣٨٥.

[١٠] نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب لأحمد المقرّي التّلمسانيّ، ٦٧/٢ – ٦٩.

[١١] شجرة النّور الزّكيّة في طبقات المالكيّة لمحمّد بن قاسم مخلوف، ١٧٨/١، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذّهبيّ، ٣٦٥/١٠ – ٣٦٩.

[١٢] سير أعلام النّبلاء للذّهبيّ، ص: ١٩٠٧ – ١٩٠٩، الدّيباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون المالكيّ، ٣٧٧/١ – ٣٨٥.

[١٣] العواصم من القواصم للقاضي ابن العربيّ، ص: ٣٦٤–٣٦٧.

[١٤] شجرة النّور الزّكيّة في طبقات المالكيّة لمحمّد بن قاسم مخلوف، ١٧٨/١.

[١٥] البداية والنّهاية لابن كثير، ٢٠٩/١٣.

[١٦] مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمريّ، ١٣٤/٦ – ١٣٨.

[١٧] الوافي بالوفيات للصّفديّ، ٢٢٩/١٥ – ٢٣٠.

[١٨] جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطّبريّ، سورة آل عمران، القول في تأويل قوله: {واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا}، ٥٤٩/٥–٥٥٧.

[١٩] دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثّاني: دُوَل الطَّوَائف مُنْذ قيامِهَا حَتّى الفتحْ المرابطي، لمحمَّد عبد الله عنانْ، ٣/٢، ٩١، ٩٣، ١١١، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس لمجموعة من المؤلّفين، ص: ٢٣٢، ٣٣٨، ٤٢٩– ٤٣٣، ٤٤٦، الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبي الحسن عليّ بن بسّام الشّنتريني، ٩٤/٣–٩٧.

ثبت المصادر والمراجع:

- ابن عيّاض السّبتي، القاضي عياض بن موسى (١٩٨٣).ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك (ط ٢). (تحقيق: عبد القادر الصّحراوي).وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلامية، المملكة المغربية.
- ابن بشكوال (١٩٨٩).الصّلة. (تحقيق: إبراهيم الأبياريّ).دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبنانيّ.
- ابن العربيّ، أبو بكر.العواصم من القواصم. (تحقيق: الدّكتور عمّار طالبي).مكتبة دار التّراث.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل (٢٠١٥).البداية والنّهاية. (تحقيق: صلاح محمّد الخيمي). وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة بدولة قطر.
- ابن فضل الله العمريّ، شهاب الدّين أحمد بن يحيى (٢٠١٠).مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. (تحقيق: مهدي النّجم).دار الكتب العلمية.
- ابن فرحون.الدّيباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. (تحقيق: محمّد الأحمدي أبو النور).دار التّراث.
- ابن فتى العلوي، محمّد الأمين (٢٠١٣).رشف الفضال من تراجم أعلام الرّجال.مركز نجيوبيه للمخطوطات وخدمة التّراث.
- ابن قنفذ، أبو العبّاس أحمد بن حسن بن عليّ بن الخطيب (١٩٨٣).الوفيات: معجم زمني للصّحابة، وأعلام المحدّثين، والفقهاء، والمؤلّفين من سنة ١١– ٨٠٧ ه (ط ٤). (تحقيق: عادل

نويهض، دار الآفاق الجديد، بيروت– لبنان– الطبعة الرّابعة سنة ١٤٠٣هـ– ١٩٨٣ م.
- ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحيّ بن أحمد بن محمد العكريّ الحنبليّ الدّمشقي (١٩٨٩).شذرات الذّهب في أخبار من ذهب. (تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمد الأرناؤوط). دار ابن كثير.
- ابن خلّكان أبو العبّاس شمس الدّين أحمد بن محمّد بن أبي بكر.وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. (تحقيق: د. إحسان عبّاس).دار صادر.
- بالنثيا، آنخل جنثالث (١٩٥٥).تاريخ الفكر الأندلسي.مكتبة الثّقافة الدّينية.
- الحموي، ياقوت (١٩٩٣).معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب. (تحقيق: الدّكتور إحسان عبّاس).دار الغرب الإسلاميّ.
- الذّهبيّ، محمّد بن أحمد بن عثمان (١٩٩٣).الإعلام بوفيات الأعلام. (تحقيق: مصطفى بن عليّ عوض، وربيع أبو بكر عبد الباقي).مؤسّسة الكتب الثّقافية.
- الذّهبيّ، محمد بن أحمد بن عثمان (٢٠٠٣).تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. (تحقيق: الدّكتور بشّار عواد معروف).دار الغرب الإسلاميّ.
- الذّهبيّ، محمد بن أحمد بن عثمان (٢٠٠٤).سير أعلام النّبلاء. (تحقيق: حسّان عبد المنّان).بيت الأفكار الدّولية.
- الذّهبيّ، محمد بن أحمد بن عثمان (١٩٨٥).العبر في خبر من غبر. (تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول).دار الكتب العلمية.
- الزّركلي، خير الدّين (٢٠٠٢).الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (ط ١٥). دار العلم للملايين.
- سعد، قاسم (٢٠٠٢).جمهرة تراجم الفقهاء المالكية.دار البحوث للدّراسات الإسلاميّة وإحياء التّراث.
- الشّنتريني، أبو الحسن عليّ بن بسّام (١٩٧٨).الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة. (تحقيق: إحسان عباس).الدار العربية للكتاب.
- الصّفدي، صلاح الدّين خليل بن أيبك (٢٠٠٠).الوافي بالوفيات. (تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى).دار إحياء التّراث العربي.
- صلاح الدّين، محمّد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرّحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر (١٩٧٤).فوات الوفيات. (تحقيق: إحسان عباس).دار صادر.
- الطّبريّ، أبو جعفر محمّد بن جرير (٢٠٠١). جامع البيان عن تأويل آي القرآن. (تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التّركيّ).دار هجر.
- عليّش، محمّد (١٩٨٤).منح الجليل شرح مختصر خليل.دار الفكر.
- عنان، محمّد عبد الله (١٩٩٧). دولة الإسلام في الأندلس (ط ٤).مكتبة الخانجي.
- الكتّاني لعبد الحيّ بن عبد الكبير (١٩٨٢). فهرس الفهارس، والأثبات، ومعجم المعاجم، والمشيخات، والمسلسلات (ط ٢). (تحقيق: إحسان عبّاس).دار الغرب الإسلاميّ.
- المالقيّ، أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النّباهي (١٩٨٣).تاريخ قضاة الأندلس المسمّى: كتاب المرقبة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفتيا (ط ٥). (تحقيق: لجنة إحياء التّراث العربيّ في دار الآفاق الجديدة).دار الآفاق الجديدة.
- المقرّي، أحمد بن محمد التّلمسانيّ (١٩٦٨).نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب. (تحقيق: الدّكتور إحسان عبّاس).دار صادر.

- مجموعة من المؤلّفين (٢٠٠٠).تاريخ العرب وحضارتهم في الأنـــدلس.دار الكتـــاب الجديـــد المتحدة.
- مخلوف، محمد بن محمد بن عمر بن قاسم (٢٠٠٣).شجرة النّور الزّكية في طبقات المالكيـــة. (تحقيق: عبد المجيد خيالي).دار الكتب العلمية.
- اليافعي، أبو محمّد عبد الله بن أسعد بن عليّ بن سليمان اليمني المكّي (١٩٩٧).مرآة الجنـــان وعبر اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزّمان. (تحقيق: خليل المنصور)، دار الكتـــب العلمية.